

الحج.. جامعة تربوية



السبت 3 أغسطس 2019 06:45 م

كتب: قسم الدعوة

تتمثل عظمة الإسلام في أنه دين عملي وواقعي وحركي؛ ينطلق بالمسلم من حيث هو، يأخذ بيده ويرتقي به، ويُهذب من سلوكه ويُغير من عاداته، وفق ما يلقاه المسلم في يومه من مواقف دينية أو دنيوية، وأنه دين لا يغفل أي موقف يحياه المسلم إلا ويجعله منطلقاً للارتقاء به، وأنه دين يجعل من عبادته رافداً أساسياً في تربية النفس وتركيتها وتهذيبها وإصلاحها، وأنه دين يجعل الأخلاق مقترنة بالعبادات في تلازم وتجانس يديع لتكون أثراً من آثار العبادة المقبولة؛ فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعوّد على الانضباط والإتقان، والزكاة مدرسة للبذل والعطاء وطهرة للنفس وتكافل اجتماعي بقاءً، والصيام ينمي الصبر بأنواعه ويوّد مشاعر المجتمع في حالة يعز نظيرها.

أما عبادة الحج فتتجسد فيها قمة العمل التربوي؛ لتصبح ميدان تربية متكاملة، وتهذيباً قوياً للنفس، وإصلاحاً وتغييراً للسلوك، بصورة أكبر مما هي عليه في العبادات الأخرى؛ وذلك لما للحج من مكانة في النفوس وشوق في القلوب، ولهفة وولع يعتصر أفئدة المؤمنين، وإن من روعة هذا الدين أنه جعل من فريضة الحج مدرسة تربوية متكاملة؛ اجتمعت فيها غالبية العناصر التربوية المطلوبة في العمل التربوي الفعال، فنجد في الحج تلك العناصر:

* استعداد المُرتبى: ففي رحلة الحج تتحقق الرغبة واللهفة في نفس المسلم؛ حيث يحمله الشوق واللهفة إلى القيام برحلة الحج؛ شوق إلى لقاء الله ورؤية بيته الحرام، وشوق إلى السلام على الحبيب صلى الله عليه وسلم، وشوق إلى تجديد العهد والبيعة مع الله، وهي مظاهر تدل على مدى حرص المسلم وإقباله طواعيةً على هذه العبادة؛ مما يبشر بتحقيق أهدافها التربوية في النفس.

* بيئة صالحة للتربية: فلا أروع من بيئة تضم بيت الله الحرام ومسجد الحبيب المصطفى والبقاع الطاهرة التي وقف عليها رسول الله، وموضع آثار أقدام الشهداء والمجاهدين من الصحابة الكرام، فتجتمع بذلك أطر بيئية صالحة للتربية والتأثير والتغيير في نفس المسلم.

* صحبة صالحة مُعينة: فإن المسلم يكون وسط جموع صالحة جاءت ثلبي نداء الرحمن؛ كل هدفها السعي إلى مرضاة الله، والغور برضاه، تقدم العمل تلو العمل، لا تملك إلا أن تكون في معية الله وفي رحابه، فتكون تلك الصحبة خير معين على تزكية النفس وتربيتها التربوية الإيمانية.

* منهج تربوي متكامل: من خلال مناسك تدرج بالمسلم خطوةً خطوة، وتسمو بنفسه، وتُعلي من إيمانياته، تأخذ بيده إلى الله، فنجد المسلم الحاج يقرأ فقه الحج والعمرة كاملاً بكل أحكامه، ويقرأ في الجوانب الروحية المنبثقة من الحج، وينظر في محظورات الإحرام لتجنبها، وأحكام الغدية والهدي وغير ذلك من فراءات تتعلق بالحج، ويظهر الأثر الحقيقي للمنهج هنا في حرص المسلم على الإمام به كله إماماً تاماً، متمثلاً جوانب المنهج الثلاثة (المعرفية والوجدانية والسلوكية).

* وسائل تربوية متعددة: تشمل الرحلة الطويلة والغصيرة الداخلية والخارجية، المبيتات الروحية والمعسكرات والمخيمات والندوات التي تقام طوال الرحلة، ووسائل تزكية النفس المتعددة من خلال الصلوات في الحرم، والاعتكاف فيه، والطواف والسعي؛ فنرى في الإحرام تربيةً، وفي التلبية تربيةً، وفي الطواف تربيةً، وفي السعي تربيةً، وفي رمي الجمرات تربيةً، وفي الحلق أو التقصير تربيةً، وفي الصلاة في الحرم تربيةً، وفي الاعتكاف تربيةً، ومن هنا فإن الحج مدرسة تربوية متكاملة؛ تربّي المسلم تربية عقائدية وإيمانية وأخلاقية... إلخ.

وهذه هي مقومات النجاح لأي منهج تربوي: أن يتوفّر لدى المتلقّي له الرغبة في الإلمام به واستيعابه، وأن يتأثر به في أفعاله وتصرفاته، مع وجود منهج تربوي مناسب وبيئة تربوية مُعينة وصحبة صالحة تأخذ بيده، وهذا ما يقع للمسلم في رحلة الحج.

ومن صور مدرسة الحج التربوية أنها:

مدرسة للتربية الإيمانية

فمن خلال الحج تتحقّق التربية الإيمانية وتتكامل وتبدو معالمها من خلال ما يلي:

- التربية على تعظيم شعائر الله: وهي من أعظم غايات الحج؛ حيث يترنّى العبد على تعظيمها وإجلالها ومحبتها وإكرام أهلها والتحرّج من المساس بها أو هتك حرمتها، ويرداد التعظيم والخضوع في قلب المسلم انطلاقاً من قوله جل شأنه في ثانياً آيات الحج: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَفْوَى الْعُلُوبِ (32)﴾ (الحج)، وتلك هي البداية؛ أن يعظّم شعائر الله في رحلة الحج، ثم يتواصل في تعظيم شعائر الله بعد عودته، لتكون حياته كلها وفق منهج الله وشرعه، ويترنّى أيضاً على تعظيم حرّمات الله من خلال امتثال قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ حَبِيرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (الحج: من الآية 30).

- التربية بالتذكير باليوم الآخر: في مواقف تحصل للحجاج؛ منها (خروجه من بلده ومغافرتة أهله يُدكّر بالفراق حال الخروج من الدنيا- التجرد من المخيط وترك الزينة يُدكّر بالكفن وخروج العباد من قبورهم حفاةً عراءً غرلاً- والترحال والتعب والازدحام مع العطش والعرق يُدكّر بمواقف عرصات القيامة وحشر العباد)، وبعبء المرء حينما يجد الكثير من المسلمين- خاصةً من غير العرب- من يأتون من ديارهم ومعهم أكفانهم، يغسلونها بماء زمزم تبركاً به واستعداداً للقاء الله، ومن ثمّ يعود المسلم بعد رحلة الحج، ولديه إقبال على الله ورغبة في لقائه.

- التربية على الإكثار من ذكر الله تعالى: الحج شعيرة يملؤها الذكر ويمناها مزيداً من الجلال والبهاء؛ قال سبحانه: ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: من الآية 198)، وفي الحديث "إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله في الأرض"؛ فالإكثار من ذكر الله من شيم وصفات المؤمنين، وما أروع حذاء المؤمنين وهم يجهرون بالتلبية مع كل صعود وهبوط في نواحي مكة؛ وما أروع تكبيرهم وتهليلهم لله عز وجل في منى وعرفات والمزدلفة وعند المشعر الحرام؛ إنه ذكر الله الذي به تطمئن القلوب.. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)﴾ (الرعد).

- التربية على اجتناب الذنوب: يقول تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: من الآية 197)، فهي دعوة وتربية على أن يتجاوز المسلم المعاصي ويتجنبها ولا يقع فيها أثناء أدائه لمناسك الحج، ومن ثمّ فهي تربية له لمواصلة ذلك بعد العودة.

- التربية على الاجتهاد في الطاعات واستغلال الوقت: وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَغْلَفُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ حَيْرَ الرَّادِ النَّفُوسِ﴾ (البقرة: من الآية 197)؛ فالمسلم في الحج يُحسن استغلال وقته في طاعة الله ما بين طواف وسعي وصلاة وذكر.. إلخ، ويترنّى على حسن الاستفادة من وقته فيما يعود عليه بالخبر والقبول عند الله.

- التربية على الدعاء ولذة مناجاة الله: فقد قال الحبيب صلى الله عليه وسلم: "خير الدعاء دعاء عرفة"، وفي الحج مواضع مقرونة بإجابة الدعاء؛ فضلاً من الله ومنه؛ منها: الطواف، الصفا والمروة، يوم عرفة، عند المشعر الحرام، بعد رمي الجمرات، علماً بأن الحج كله سوق رائجة رابحة للدعاء والابتهاال والاستغفار، وهو تعويد للمسلم على اللجوء إلى الله دائماً، وفي كل وقتٍ وحين، والأنس بمناجاته سبحانه وتعالى.

- التربية على الاستقامة بعد الحج: فالمسلم العائد من الحج يجد نفسه ملزماً بالمحافظة على بقاء صفحته بيضاء بعد أن غفر الله له في الحج، وفي ذلك قال الحسن البصري رحمه الله: "الحج المبرور أن يرجع زاهداً في الدنيا، راعياً في الآخرة، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)﴾ (محمد).

مدرسة للتربية الأخلاقية

فالحج مدرسة تربوية تقوم على تقويم الأخلاق وتهذيبها، وقد شرع الحج لتقويم الكثير من الأخلاق ومنها:

- التربية على العفة وكظم الغيظ وترك الجدال: كما في قوله عز وجل: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: من الآية 197)؛ فالرفث هو الجماع ودواعيه من قولٍ أو فعلٍ، والجدال أن تجادل صاحبك حتى تُغضبه ويُغضبك؛ فهي صورة من صور غرس القيم في نفس المسلم، وترك المنهي عنه.

- التربية على اللين والرفق والسكينة: كما قال عليه الصلاة والسلام حين سمع جليّةً وصخباً في الدفع لمزدلفة: "أيها الناس.. عليكم بالسكينة؛ فإن البر ليس بالإبضاع"، والإبضاع هو الإسراع؛ فالحاج يترنّى في نسكه على أن يكون صاحب رفق وسكينة، وخشوع وطمأنينة؛ ليعتاد ذلك كله في حياته كما هي في عباداته.

- التربية على إنكار الذات؛ والاندماج في الجماعة في اللباس والهتاف، وفي التنقل والعمل؛ فإن النفس تذوب في هذا الكيان البشري الواحد، ويصبح الكل يتكلم بلغة واحدة وخطاب واحد وهتاف واحد وشعار واحد: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك"، فيتولد في النفس المسلمة شعور بأنه جزء من هذا الكيان، ويتضاءل حظ النفس وحب الأنانية في ذاته، فيكون مسلماً اجتماعياً؛ يعيش لأمته ويحمل همومها ويتكلم بلسانها ويهب نفسه لها.

- التربية على التواضع: يستشعر المسلم ذلك حين لا يمتاز أحد عن أحد، ولا تكون لحاج خاصة أو ميزة عن غيره من الحجاج في الأمور الدينية؛ فالأركان والواجبات والمسئوبات متماثلة في حق الجميع، فيترى المسلم على روح التواضع الجم، ويحقق قوله تعالى: ﴿أَدْلِيَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: من الآية 54)، ويعيش سعيداً بانتمائه لهذه الحشود المؤمنة، وتُغلب روح التواضع على الكبر والعجب بالذات.

- التربية على الصبر بأنواعه: صبر على مشقة الطاعة، وما أحلاها من طاعة يصبر المسلم عليها رغم مشقتها ويسعد بأدائها؛ وصبر عن المعصية، خاصة مع التزام وكثرة الناس، فيجتنب نفسه الوقوع في المعاصي وما أكثرها وقت الحج؛ بدءاً من تدافع وإيذاء للمسلمين، ونظرة هنا أو هناك، وصبر على قضاء الله الذي يعرض للحاج، من ابتلاء أو تمحيص أثناء رحلة الحج، وفي ذلك تعويد له على الصبر على قضاء الله وقدره في حياته بشكل عام.

- التربية على البذل والعطاء: فالحج عبادة بدينية مالية، وفي المشاعر تتسامى المشاعر فيبذل المسلم من ماله لسقيا الحجاج أو تفريج كربهم وسد حاجتهم، ونجد في الحج تسابقاً عجباً لهذا البذل والجود والكرم، وفي التاريخ نماذج رائعة؛ فهذا عبد الله بن المبارك الذي كان يحمل معه في رحلة الحج أكثر من ثلاثمائة يخرجون من بلدته "مرو" وعلى نفقته الخاصة، وغيره الكثير، وما نراه اليوم في الحج يؤكد تلك المعاني، من التسابق في البذل لإطعام الحجيج وإكرام وفادتهم.

- التربية على تحقيق معاني الأخوة والمحبة والتآلف: خاصة حين يكون الحج مع رفقة وصحية، وتتلاقى الأنفس وتتعارف، وتأنف القلوب والأرواح، وتحقق زمرة القلب الواحد ف

